«الآداب»... و رهانات الحداثة

د. واسيني الأعرج

- ١ -

يتداخل في ذهني أمران، كلّما ورد الحديث عن مجلّة مهمّة مثل مجلّة **الآداب**، أمران يملكان في الأصل كلّ مبرّرات التّداخل: مجلّة **الآداب** كفضاء مفتوح كان ومايزال مقترناً بأسئلة الحاضر العربي بكلّ تعقّداته وإحراجاته ويجتهد دوماً باتّجاه البحث عن الإجابات التي لا تسعف دائماً صاحبها، والمجلّةَ؛ و«دار الآداب» التي تحاول بدورها أن تجسّد هذه الأسئلة من خلال مجموعة من الممارسات الإبداعيّة، عبر النّصوص المقترحة على القارئ العربي، باتّجاه تشييد نصٍّ عربي يجيب عن حاضره ويُسْهم في بلورة وجوده الإنساني بشكلٍ فاعل.

ومع ذلك فإنّي سأحاول أن أفصل بين الأمرين.. أن أفصل بين ما لا يُفْصَلُ أصلاً.

أن تكابد مجلّة عربيّة من أجل وجودها الأمرّين، في فضاء ثقافي عربي، ومناخ سياسي متحوّل باستمرار ومعادٍ في جوهره للثقافة بمعناها النّبيل والحيوي، ليس أمراً هيّناً. وعندما ندخل في عمق السؤال المحرج ونعود إلى الإحصائيّات المتعلّقة بالنّشر في الوطن العربي ودرجة المقروئيّة.. سنكتشف بدون عناء كبير خطورة الوضع، ومحدوديّة ما يُطبع، وانعداميّة(؟) المقروئيّة، وهذا ما دفع بالكثير من المشاريع الثقافيّة الواعدة نحو الإفلاس. فكم عدد المجلاّت التي واكبت مجلّة **الآداب** أو جاءت بعدها؟ كم بقي منها في وقتنا الرّاهن؟ يكاد الأمر أن يكون مضحكاً، وتراجيديّاً في الآن نفسه. جَرْدٌ بسيط، وتَقرُّبٌ واعٍ من الإشكال، يبيّنان أنّ العدد المتبقّي ضعيفٌ ويكاد يكون هزيلاً بلغة الأرقام.

قد تتلخّص صفةٌ من الصفات الجوهريّة لمجلّة **الآداب** بفعل الديمومة.. ديمومة قاسية وشبه مستحيلة تنشأ في عمق وضعٍ لاثقافي، يتآكل باستمرار، ويصرّ على ثباته الوهمي: يُنتج ويلغي نفسه بدون أن يتوصّل إلى إحداث «التراكم» الذي يُنْجز في كلّ الثقافات العالميّة. والمعلوم أنّ عمليّات الخلق والابتكار والتّحاور لا تتأتّى من الفراغ ولكنّها وليدة التراكم الذي يُنْتَقَد وتُعطَى لعناصره الإيجابيّة صفة/ صفات الاستمراريّة. مقطوعون نحن، وكلُّ أفعالنا الثقافيّة والسياسيّة وغيرها تبدأ من لحظاتٍ ليستْ في الحقيقة لحظات بَدْئها. ويبدو لي، أنّ في عمق وضع كهذا مبرّراتٍ تاريخيّةً؛ أي أنّ لحظات القطيعات(؟) الكبرى(؟) التي تمّتْ في تاريخنا الثقافي لم تكن قطيعاتٍ صحيحةً أو مبنيّة في الأصل على دراسات نقديّة مسبقة. فبدل أن تُنْجَزَ هذه اللحظات ضدّ المعوّقات في ثقافتنا بالمعنى العامّ، حدثت بشكلٍ عكسي: فتمّت القطيعة مع ما هو **إيجابي** يملك عنصرَ الاستمراريّة الموضوعيّة، وتمّ الحرمان المباشر من «فعل التراكم» الثقافي.

ديمومة «الآداب» قاسية وشبه مستحيلة، لأنّها تنشأ في عمقِ وضعٍ لاثقافيّ يتآكل باستمرار ويصرّ على ثباته الوهمي!

صفة أخرى تنضاف إذن إلى مجلّة **الآداب** هي صفة التراكم الثقافي في مجتمعات تعيش بنصف رِجْلٍ في حاضرها، وبرِجْلٍ ونصفٍ في ماضيها بالمعنى السّهل والسكوني (وليست معنيّة كثيراً بالتراكم الثقافي الذي تتولّد عنه التمايزات الممكنة) منذ عقودٍ كثيرة. وهذه المجلة تحاول جاهدةً وسط هذا المناخ الفكري الذي ليس إيجابيّاً على الدوام، أن تتحوّل إلى ذاكرة عربيّة واكبتْ، باستمرار وبنفس مكافح،

قضايا التحرُّر الوطني العربي، من الموقع الفكري الصعب، لا السياسي الاستهلاكي والسّهل. وواكبت القضايا القوميّة الكبرى، والتمزُّقات الحاصلة في جسد الكثير من البلدان العربيّة، لتتحوَّل مع الزمن إلى منبر سجالي ومادّةٍ ثقافيّة ووثائقيّة ومرجعيّة، تجدّد أسئلتها باستمرار، أو على الأقلّ تحاول أن تفعل ذلك بكثير من الحماس من خلال أعدادها العاديّة، أو الممتازة، أو المخصّصة لقضاياثقافيّة وفكريّة، أو لبعض الأقطار العربيّة، لتتعرَّف من خلال هذه الفجوات الصّغيرة على ما يحدث هنا وهناك من إنجازات ثقافيّة ونقاشات وإحباطات، داخل مساحة الوطن العربي الواسعة(؟) التي تنام في الأغلب الأعمّ على إجاباتٍ جاهزة، افترضتها وبقيت سجينةً لها، تدور ضمن دائرتها المغلقة. من عمق هذه المجلّة ـ الوثيقة نستطيع الآن أن نعرف جروحنا، ولكن كذلك أوهامنا، ومكوّنات مخيلتنا الثقافيّة المعاصرة.

ـ ٢ ـ

من هذا الموقع، اختارت مجلّة **الآداب** الطرق الصعبة التي هي في العمق طرقٌ تجريبيّة وغير قارّة أبداً. فانحازتْ لخندق الحداثة، لا كتصوُّر جاهز، ولكن كأفكار ومناخات من الحرّيّة، تتطوَّر باستمرار: تتصارع، وتتضاد، تنهض وتقوم باتِّجاه مشروع التّعبير الديمقراطي الحرّ؛ حداثة تناقش ذاتها، ولا تضع الآخر ـ المالك للمعرفة والإبداع والتطوُّر ـ خارج دائرة الأسئلة هذه؛ حداثة لا تقطع روابطها مع مكوّناتها الثقافيّة الجوهريّة وعناصرها الأساسيّة والتاريخيّة باتِّجاه التفتُّح نحو تعدُّدية ثقافيّة لم تكنْ دائماً مسألةً سهلةً وممكنة التحقُّق. وكلّما انغلقت الأوضاع ووصلتْ إلى حالة التأزُّم داخل بنياتنا الثقافيّة والحضاريّة، كانت مجلّة **الآداب** تحاول من موقع تصوُّراتها الذاتيّة أن تفتح هذه الانغلاقات باتِّجاه المحاورة والسجاليّة والنقاش. من خلال هذا المنبر، جاءت أسئلة الشِّعر العربي الحديث، والشِّعر الحرّ تحديداً. فثمّة أسماء كبيرة مثل «السيّاب» (تحديداً لا حصراً)، وثمّة تجربة جديدة مثل القصيدة «الحرّة»، قد ظلّت جميعها غريبةً مدّة من الزمن ومحارَبةً من طرف عقليّة أوتوقراطيّة تقدِّس كلّ ما تلمسه، حتّى ولو كان شعراً أو وزناً أو لغة، وداخل بنية مجتمعيّة وثقافيّة تقليديّة في عمقها واسترجاعيّة وتكراريّة. ولولا مجلّة **الآداب** لما حدث هذا الاختراق الكبير لهذه البنية. وعلى الرّغم من محدوديّة هذه الاختراقات إلاّ أنّها وجدت في مجلّة **الآداب** ومجلاّت عربيّة أخرى بطبيعة الحال، مجالاتٍ تعبيريّة أساسيّة حاملة لهذه البذرة التغييريّة، ليُنقل الفعل الثقافي الحداثي الجديد من موقع السّؤال والعزلة إلى موقع الإبداعيّة والتجسُّد النسبي، وتتحوَّل مثلاً القصيدة الحرّة إلى ظاهرة من خلال تعميم نشرها كنصوص مفصولة في مجلّة **الآداب** أو كنصوص مجتمعة في شكل دواوين، خارج المجلّة. ومعركة مثل هذه ليست معركةً مضمونة بشكل مطلق، ولكنّها نضال مستمرّ في مناخ ثقافي يتعامل مع الجاهز أكثر ممّا يتعامل مع المتحرِّك: يباشر التّهمة أكثر ممّا ينجز المعرفة والنّقاش والتبادل والإقناع. ولا أريد هنا أن أعود إلى معارك الشِّعر العربي الجديد؛ فهي معروفة لدى الجميع.

والشيء نفسه يمكن أن يُقال عن الرواية العربيّة التي يبدو لي أنَّ من الصَّعب، بل من المستحيل، فصل إنجازات المجلّة في هذا المجال عن إنجازات الدّار. فالاجتهاد كبير باتِّجاه تطوير النَّصّ الروائي العربي: الرواية بوصفها فضاءً واسعاً يستطيع أن يحتوي داخل بنيته المتعدِّدة كلَّ التحوُّلات والتغيُّرات الحاصلة في عمق المجتمع العربي، وفي عمق البنية الروائيّة ذاتها، والتمزُّقات النَّصّيّة التي تحاول أن تتخطَّى عتبة التَّقليد، تقليد الآخر، أو تقليد ما أنجزته الأنا في فترات سابقة مغايرة حتماً لتفاصيل حاضرنا.

مسار الرواية العربيّة في «الآداب» مرتبط بالأسئلة الكبيرة المتعلِّقة بالبنية/ البنيات التي يجب أن تتخلخل حتّى لا تتمأزق وتتحوَّل إلى مقدَّس!

إنَّ الرواية التي ناصرتها مجلّة **الآداب** هي الرواية التي تحاول أن تنجز تمايزها، لا من موقع التقليد، ولكن من موقع الحداثة التي تتساءل قبل أن تستهلك. والممارسات النقديّة، في هذا المجال، والتي احتضنتها مجلّة **الآداب** كثيرة: من الدكتورة يمنى العيد، إلى الدكتور فيصل درّاج، إلى الدكتور محمد برادة، إلى د. عبد الرزاق عيد، إلى الباحث محمد كامل الخطيب وغيرهم... وكذلك الممارسات الإبداعيّة الروائيّة الكثيرة، التي تشكِّل اليوم علاماتٍ في الكتابة الروائيّة في الوطن العربي: من إلياس خوري، إلى يحيى يخلف، إلى هاني الرّاهب، إلى إدوار الخرّاط، إلى أصوات جديدة مثل أحلام مستغانمي وغيرهم... إضافة إلى الإبداعات الروائيّة العالميّة من فرنسا، إلى اليابان، إلى أمريكا الجنوبيّة، مروراً بالمدارس النقديّة من الوجوديّة، إلى الرومانسيّة، إلى الواقعيّة، إلى الواقعيّة بتفرّعاتها الجديدة، يظلّ مسار الرواية العربيّة في مجلّة **الآداب** مرتبطاً بالأسئلة الكبيرة المتعلِّقة بالبنية/ البنيات، التي يجب أن تتخلخل حتّى لا تتمأزق وتتحوَّل بدورها إلى مقدَّس في المطلق، أي إلى شكل هلامي لا يُطوّر ولا يتطوَّر، شكلٍ يقع خارج الزمن والديمومة. فالبنيات الثابتة(؟)، أو التي تحاول فعل ذلك، مقاومة، ولكنّ قوّة ضربات التحديث وتجديد الأسئلة النقديّة والاشتغال الإبداعي المباشر على النصوص قوَّضتْ قليلاً من مقاومتهاودفعتها إلى التّغيير والتجدُّد، باتِّجاه خلق نصّ عربي متمايز في مجال الرواية ونقد الرواية: من روايةٍ هاجسُها المضامين والموضوعات والواقعيّة

(حنّا مينة مثلاً) إلى رواية غير قارّة تبحث عن شكلها داخل تغيّر بنياتها بشكلٍ مستمرّ (إدوار الخرّاط). فهناك خيط رفيع، بين أسئلة الحداثة التي تبنّتها المجلّة واختارتها بوعي، ومشروعها الفكري القومي الذي تدافع عنه، من أجل صياغة نصٍّ أدبي عربي قادر على إعلان صوته وحضوره في السياق العالمي والإنساني.

ولكن ضمن هذا التصوُّر الحداثي العامّ، هل طرحت مجلّة **الآداب** كلَّ الأسئلة التي كان يجب أن تُطرح عبر رحلتها الطويلة، والمحفوفة بمخاطر التوقُّف، والتوقيف، والمصادرة في الحدود العربيّة؟! أعتقد أنَّ الكثير من هذه الأسئلة بقي معلّقاً وسأطرحها في نهاية هذا التدخُّل، لأنّي أعتقد أنَّ ذلك ضرورة حيويّة لنا، ولمجلّة كبيرة مثل مجلّة **الآداب**. لا يُمكن أن نخبّئ رؤوسنا مثل النعامات، في الرِّمال، والتاريخ يمضي، والأسئلة، كلّما أُهملت، ازدادت حدّتها، وقساوتها وخطورتها ربّما. خارج هذه الأسئلة المعلّقة، تظلّ الحداثة التي دافعت عنها مجلّة **الآداب**، حداثة التغيُّر والحركة داخل بنيات النصوص الأدبيّة التي تملك صفة الجدّة، انطلاقاً من التصوُّر المنهجي، والعقلاني، الذي يفترض أنَّ الأجيال المنتجة للثقافة، والإبداع والمتخيّل، تتداخل، وفي تداخلها تتمايز كذلك. والذي يثير أسئلة القلق والإحراج، ليس التداخل ـ فهو يعني بالضرورة الإنتاج داخل نفس النُّظم والأنساق ـ بل التمايز، الذي يعني الاختلاف، والخروج عن المتَّفق عليه والمتآلَف حوله، لتصبح شروط إدراكه واستقباله صعبة وأحياناً مستحيلة، لأنَّها شروط ليست منجزة دائماً، سواء من حيث أدوات الكتابة، أو موقع المقروئيّة المستهلكة للنّصوص، والمرتبطة ببروتوكول قراءة سابق، وبوفاقات لغويّة وبنيويّة منجزة سلفاً لا تساعد على فهم النّصوص الجديدة والمتمايزة المحرجة باستمرار لأنَّ أسئلتها في طور التّكوين والإجابات بصدد التبلور.

ولهذا كلّه، فالبحث الدؤوب لمجلّة **الآداب** عن أساليب التجدُّد ومحاولة فهم المتغيّر، هو الذي دفع بها باتّجاه الانتصار لكلِّ ما هو إنساني من موقع الاختيارات الكبرى والمتميِّزة، للشكل الذي يمكن أن يتّخذه فعلٌ كفعل الحداثة الذي يعني شرطيّاً الارتباط بالعصر ارتباطاً عضويّاً صحيحاً ووثيقاً من موقع التفكير في الإضافة إلى المعرفة الإنسانيّة لا استهلاكها فقط.

أعتقد أنَّه سؤال مركزي صاحبَ مجلّة **الآداب** ودار **الآداب** في الوقت ذاته بدون أن يعني ذلك أنَّ الإجابات الجوهرية أُنجزت وانتهى أمرها كما ذكرتُ سابقاً. ولكنّ طرح السؤال في حدِّ ذاته أو طرحَ بعضٍ من السؤال، بشكلٍ صحيح، يشكّل المقدّمة الأساسيّة لإنجازات الاجتهادات والإجابات الممكنة.

ـ ٣ ـ

بعد كلّ هذا النَّفَس الطّويل، هل بقي شيء جديد لمجلّة **الآداب** لكي تقولَه وتدافع عنه، بدون إعادة نظر دقيقة وعميقة في الذّات العربيّة من جديد، والتوقُّف قليلاً عند التكسّرات الحاصلة في العمق؟ صدور مجلّة **الآداب** صار الآن صعباً ووصولها إلى الأسواق العربيّة صار شبه مستحيل إن لم يكن مستحيلاً ومتعذّراً. هل تعبتِ المجلّة؟ هل تعب السّاهرون عليها؟ هل تعب الذين قرأوها ويقرأونها منذ مدّة طويلة؟ أم أنَّ الحلم الكبير الذي كرَّسَتْ له حياتها بدأ يتشقَّق، وينكسر، ويتفتَّت في ظلِّ هيمنة أنظمة تبنَّت هذا الحلم (ظاهريّاً؟) ثمّ تخلَّت عنه نهائيّاً وسط كومة من المبرّرات للارتباط بالنظام الدولي الجديد، وبدون حلّ أو تصوُّر حلّ ولو بسيط لأسئلة النظام القديم(؟) الذي كوَّن ذاكرتها ومخيلتها وأدبها وأشواقها؟

ماذا يحدث الآن؟

سؤال صغير، كبير يواجهنا، بدون أن نملك القدرة ولا الإمكانيّة لمواجهته سوى الاندفان في ماضينا الذي صار مجيداً، وكنّا نلعنه قبل مدّة عندما كنّا نعيشه، ويواجه الأجيال الجديدة التي بدأت تميل نحو الجاهز والتّدمير الذاتي المصاحب عادة للغيبات الكبرى.

ما معنى القوميّة، وقضيّة فلسطين، والعدوّ الصهيوني، والمواطنة العربيّة، والدولة... والأدب في مجتمعات لا تقرأ إلاّ بنسبة ضئيلة؟!

ما يحدث الآن فظيعٌ جدّاً والصَّمت عليه أكثر فظاعةً. ولكن هل باستطاعة مجلّة **الآداب** التي تبنَّت مشروعاً ثقافيّاً قوميّاً كبيراً في اللّحظات الأكثر حساسيّة، أن تتبنّى هذه الأسئلة الجديدة ـ أسئلة اليأس، ولكن أسئلة الأمل أيضاً ـ إذا وجدت من يضعها في مناخاتها الصحيحة؟

الأصعب هو أنَّ هذه الأسئلة الجديدة تتطلَّب أوّلاً الرّجوع إلى رحلة نصف القرن الماضية ومحاولة فهمها ونقدها بجرأة وتخطّي سلبيّاتها ومعوّقاتها. فالقطيعات الوهميّة، والارتباط المباشر بآليّة الهيمنة والاستهلاك السَّهل، لا تسجِّل الإشكال بقدر ما تعمل على تعقيده.

دمٌ جديد، قد تحتاج إليه المجلّة.. ولكنَّها تحتاج كذلك، وبشكلٍ حتميّ، إلى ضرورة إدراج أسئلة العصر التي تواجهنا، وهي أسئلة جدّ معقَّدة ولاشكّ وتكاد تكون أحياناً بدون إجابات تذكر، وسط تكلّس الفكر العربي وعجزه، ووصوله إلى المأزق الذي هو في الأصل مأزق الأنظمة التي أجّلت كلّ مشاريع الديمقراطيّة الكبيرة للمصلحة الفرديّة والسلطويّة والهيمنة والنهب واستعمال المثقَّف ضمن هذه الدائرة، حتّى صار هذا الأخير لا يستطيع أن يفكّر خارج

هذه الآليّة.

الوضع صار جدّ معقّد وهناك أفكار وأسئلة تحتّم علينا بعض التأمُّل والقراءة والفهم.

* ما دور المثقّف الآن، في وضع لاثقافي؟ وهل الثقافة بمعناها النبيل فاعلة حقيقة في مجتمعاتنا التي دخلت دائرةَ السهولة والاستهلاك، كما نتوهّم ونتصوّر، بحيث أنّ خطاب أيّ سياسي من الدرجة العاشرة يمكن أن يصل وبسهولة، أكثر من خطاب المثقّف الذي يظلّ يدور حول ذاته قبل أن يتآكل؟ ألا توجد وسائل أخرى للتفكير والمعرفة؟!

* ما معنى القوميّة الآن؟ القضيّة الفلسطينيّة؟ هل هي نفس القضيّة التي طرحت قبل سنة مثلاً؟ أصلاً هل صارت الآن فلسطين قضيّة؟ أليس من الضروري إدخال الشروط الجديدة، ضمن مسارات التفكير والقراءة والتأمُّل والتفحُّص ومحاولة الفهم بدون أن يعني ذلك قبول ما يحدث الآن والاستسلام له؟

* ما معنى العدوّ الصهيوني ونحن نتحدّث عن علاقات الجوار والمشاريع المشتركة؟ أمايزال عدوّاً؟ وهل الرحلة الفكريّة التي قطعناها كانت دائماً صحيحة؟ حماساتنا الكبيرة، وخطاباتنا ألا تحتاج إلى بعض التأمُّل والمساءلة بدورها؟

* ما معنى المواطَنَة العربيّة في أوطان لا نشعر مطلقاً أنّها لنا، بل لغيرنا؟ وأصلاً، ما معنى عبارة وطن عربي، عندما يصبح الشَّطط كبيراً للحصول على أدنى الشروط الإنسانيّة في وطنك، فتضطرّ لمغادرته، فلا تجد بلداً عربيّاً واحداً يحتضنك، فتضطرّ مكرهاً للبحث عن مكان آخر يقع خارج هذه الرُّقعة، التي تكبر وتتفتّت ولا تتساءل إلاّ قليلاً عمّا يحدث لها؟

* ما معنى الأدب أصلاً في مجتمعات لا تقرأ إلاّ بنسب ضئيلة تكاد لا تُذكر؟ أليس الأمر مضحكاً أن نتحدّث عن الأدب العربي، عندما تطبع دور النَّشر الكبيرة نسخاً لا تتجاوز ٣٠٠٠ من كلّ نصّ في أرقى الأحوال لأكثر من ١٥٠ مليون عربي؟؟ أليس الأمر فظيعاً ومذهلاً؟!

* ما معنى الدولة، عندما نكتشف فجأة أنّ الدولة بالمعنى المعاصر لم تتكوّن أبداً في مجتمعاتنا؟ فالدولة مؤسّسة أو مؤسّسات تحمي الأفراد والجماعات والممتلكات، والدولة قوانين، ونحن نواجه يوميّاً منطقاً عشائريّاً متخلّفاً يعيد إنتاج نفسه باستمرار وكأنّ التاريخ عندنا لا يسير.

* ما معنى العقل العربي، عندما يجمع هذا العقل بشكل غريب بين الخرافي، والغيبي، والديني، والعقلاني، ضمن منطق(؟) واحد بدون أن يشعر بأيّ شكلٍ من أشكال التناقض والإحراج؟؟

* ما هي وظيفة الدين في مجتمعات تعيش ـ أو هي مقدمة على هزّاتٍ عنيفة قد تنسفها بكلّ كياناتها؟ ألا يثير ما يحدث في الجزائر من همجيّة باسم الدين حاسَّتَنا نحو الأسئلة باتّجاه طرح السؤال الديني من الموقع الصحيح المتعلّق بالفرد، وبدء التفكير، في مجتمعات مدنيّة صحيحة، ضمن إطار ديمقراطي تحكمه شروط العصر الموضوعيّة والقوانين البشريّة؟ أليست الجزائر الآن فرصةً لطرح قضيّة الدين والدولة التي لا تطوّر خارجها أبداً؟

وغيرها من الأسئلة الممكنة التي عُطِّلَتْ في السّابق وماتزال معطَّلة لأنّها جوهريّة.

الهوّة كبيرة بيننا وبين هذه المصطلحات الكثيرة وهذه الإحراجات.

بعيداً عن الصعوبات الماليّة والتّوزيع، نتساءل كيف ستكون مجلّة الآداب وسط العواصف القادمة ووسط هذا الخواء الممتلئ بالخيبات وبالصَّمت المريب(؟). نتساءل فقط، لأنّنا نريد أن يكون لها دور في تنشيط الإجابات ورهانات الحداثة والمستقبل الثقافي العربي. وأن نتساءل، فذلك أضعف الإيمان.

الجزائر-باريس-صيف ١٩٩٤